طلال سلمان

• «جمهورية الأمير» في رثاء متأخر لنقولا ناصيف

السفير ٥/١٢/٢٠٠٢

التاريخ السياسي عند العرب «صناعة يدوية»، تختلف طبعاته، بالوقائع ذاتها وليس بالاستنتاجات فحسب، باختلاف صناعه، وربما لهذا تختلف صياغاته وفق اهواء كتابه وارتباطاتهم وعواطفهم ومدى الرؤية.

في الغالب الأعم يتم التعامل مع القائم بالأمر من الحكام على انه «القائد الفذ» او «المنقذ» او «بطل الاصلاح»، ولا سيما أن تداول السلطة ديموقراطيا ليس مألوفاً، او فلنقل انه ليس قاعدة طبيعية معتمدة... وعلى هذا فلا بد من «معجزة» كي يخرج القائم بالامر، وبالإستطراد، فمن البديهي أن يفترض في من يدخل بديلا او وريثا انه قد اجترح واحدة من العجائب الخارقة، وبالتالي فمن حقه أن يميز نفسه بمراتب وألقاب استثنائية.

في لبنان على وجه التحديد، وتدليلاً على سيادة المفاهيم المبتكرة للديموقراطية، فإن الخارج من «القصر الجمهوري»، ولا سيما في حقبة ما قبل «اتفاق الطائف»، أي حينما كانت صلاحيات «الرئيس» أمبراطورية مطلقة، غالبا ما كان يصنف كرمز للفساد والتفرد والعداء للمطالب الشعبية... اما «الداخل» فهو المجسد الحقيقي لارادة التغيير ولتحقيق العدالة والطموح الى التقدم وانجاز حلم الديموقراطية!!

الخارج من القصر «منبوذ»، متهم في ذمته المالية بداية، ثم في «تفرده» بحيث يصور «طاغية»... اما الداخل إليه فيكاد يصور في مستوى «الملهم» او الرجل المدخر لتحقيق الأمل المنشود!

غالبا ما كان «التغيير» في القصر يتم بوسائل ديموقراطية المظهر، وان كانت من الهشاشة بحيث لا يمكنها ان تخفي قوى الدعم والاسناد للأطراف السياسية المتصارعة في الشارع الذي غالبا ما كان منقسما على ذاته، وبالتالي فإن الحكم في الداخل كان يتم عبر اعادة صياغة العلاقة لتحقيق التوازن بين قوى الخارج...

وبطبيعة الحال فإن «الصوت العربي» في الانتخابات الرئاسية في لبنان كان من حق الطرف الأقوى او تحالف طرفين او أكثر، خصوصا ان في الشارع من كان بوسعه ان يسمع فيسمع هذا «الصوت العربي»، الذي يستبطن «تفاهما» مع الأقوى بين الأطراف الدولية ذات النفوذ في المنطقة.

الرئيس الراحل فؤاد شهاب نموذج فريد في بابه بين الذين تعاقبوا على رئاسة الجمهورية في لبنان. فهو، بداية، أمير من الأسرة الشهابية التي «ورثت» انسباءها المعنيين في حكم امارة الجبل، مع الأخذ بالاعتبار ان هذه الأسرة ترجع في انسابها الى قريش. على ان ذلك لم يمنع المتحدرين من النسب الشريف من ان يتحولوا بمذهبهم تارة ثم بدينهم كله تارة اخرى، بما يتناسب مع مقتضيات الوصول الى السلطة. وهكذا فإن في لبنان حتى اليوم شهابيين من السنة (الأصل) وشهابيين دروزا، وشهابيين موارنة.

فؤاد شهاب المتحدر، بحسب شجرة العائلة، من فرع الأمير بشير الكبير، هو الرئيس الذي شكل علامة فارقة في تاريخ الجمهورية باعتبار انه حاول التقدم من استقلال الدولة الى دولة الاستقلال (وهذا احد الشعارات الصلحية التي قدم بها عهده)... ولأنه متميز فقد اختاره الزميل نقولا ناصيف موضوعا لكتابه الممتاز بدقته وشموليته «جمهورية فؤاد شهاب».

واضح ان نقولا ناصيف قد بذل جهداً ملحوظاً امتد الى تاريخ الأسرة العريقة بتحولاتها وبدورها السياسي البارز في «امارة جبل لبنان»، بداية، ثم «باستعادتها» الرئاسة الاولى بعد اكثر من مئة سنة على سقوط آخر من حكم باسمها، او اسقاطه، الأمير بشير الكبير، عبر سلسلة من الانقلابات السياسية والتجوال الطويل بين أحمد باشا الجزار، والي عكا، ونابليون بونابرت وباشاوات السلطنة، وحروبه ضد منافسيه الكثر داخل أسرته، ثم منازعيه على السلطة في الجبل اساسا، وأبرزهم بشير جنبلاط، ثم في الجنوب، وجهاء العائلات ذات النفوذ، حتى إذا وصلت حملة ابراهيم باشا نجل محمد علي الكبير (حاكم مصر آنذاك) الى لبنان في طريقه لقتال السلطنة العثمانية، انضم إليه (مكرها)، حتى اذا هزمه التكتل الغربي - الشرقي ضده (بريطانيا - فرنسا - النمسا وحتى روسيا)، كان على أمير الجبل ان يرحل عن البلاد تاركا اياها تغوص في دمائها نتيجة حرب أهلية متعددة مصادر التحريض!

ولقد ذهب نقولا ناصيف مع فؤاد شهاب في رحلة طويلة بدأت بمولده في بيت فقير في جونية بكسروان ولأسرة فقدت عائلها فتكفل بها الأخوال من مشايخ آل حبيش، حتى تلقيه شيئا من الدراسة، قبل ان يلتحق بنواة «جيش الشرق» الذي بدأ الفرنسيون بتشكيله في بطن جيشهم حتى إذا حان موعد اجلائهم عن لبنان سمحوا للجيش اللبناني بالحياة وتركوا قيادته للضابط (الآن) فؤاد شهاب.

القائد الذي بدأ يتيما كان قد تعرف خلال خدمته العسكرية على صبية فرنسية ستكون زوجته ورفيقته الى الأبد، بعد قصة حب صارت حياتهما الهانئة برغم انهما لم يرزقا بأولاد. وكانت في طباعها مثله، لا تبهرها المظاهر وتكتفي بما يقيم الأود، ولا تهتم بالرياش الفخمة ولا تحب القصور، وليست شغوفة بالاجتماعيات ومقتضياتها المنهكة.

وتشاء الأقدار ان تهتز دولة الاستقلال بعد سنوات قليلة على الاعلان عن قيامها حين اقدم رئيسها على التحضير لتجديد ولايته، والتزوير بين أدوات التحضير.

ولقد خلع بشارة الخوري بعد ثلاث سنوات فقط على التجديد... فاتجهت الانظار الى فؤاد شهاب ليكون الخلف. لكنه كان يقرأ جيداً، فأدرك ان ساعته لم تدق بعد، وهكذا فقد وفر الظروف لانتخاب كميل شمعون، زعيم المعارضة آنذاك، رئيساً. لكن هذا السياسي المحنك لم يتعظ بتجربة سلفه، فحاول تجديد رئاسته متحديا شعبه في الداخل وموجة الاعتراض العربي، المتعاظم على سياسة الانحياز لمشاريع الغرب الاستعمارية (حلف بغداد)...

وهكذا كان حتمياً ان يتم اختيار اللواء - قائد الجيش فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية، خصوصاً انه كان يحظى بدعم زعامة العرب يومذاك ممثلة بجمال عبد الناصر الذي جعلته الوحدة بين مصر وسوريا رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

كانت احلام فؤاد شهاب عظيمة، بينها ان يبني دولة، وبينها ان يحقق عدالة اجتماعية، وكان لا بد له من ان يصطدم «بأكلة الجبنة» من محترفي السياسة وأرباب المال، ولم يكن مستعداً لأن يقاتل دفاعا عن حلمه... ربما لهذا احس بعد سنتين انه لا يمكنه الاستمرار رئيساً فكتب استقالته. لكن النواب اجمعوا على رفضها آخذين بالاعتبار التأييد الشعبي فضلا عن وقوف الجيش الى جانبه. وهكذا بقي فؤاد شهاب رئيسا، وان كان قد بات له الآن «شركاء» من كبار ضباط جيشه (ولا سيما في المخابرات) ومن المغالين في تأييده من «البكوات» و«الوجهاء» الذين يقبلون بالأمير رئيسا، لكنهم سيختلفون حتى التصادم على خلافته.

الحكاية طويلة: بدأت كحلم وانتهت بالنسبة للأمير الذي قبل الرئاسة منعا لحرب أهلية، مثل كابوس، ولذلك رفض ان يجدد... ثم لم يلبث ان كتب بخط يده النعي التاريخي لنظام عاجز عن تطوير ذاته وعن ارضاء طموحات شعبه نتيجة تكالب طبقته السياسية على المغانم والمناصب ولو عبر الولاء للخارج.

نقولا ناصيف أرخ لهذا الحلم بقلم محب: فلم يخف اعجابه بهذا القائد الذي يشكل ظاهرة في الحياة السياسية غيرت قليلا وحاولت ارساء الأسس لدولة حديثة، لكن غيلان الطائفية والمال والمصالح والارتباطات مع الخارج لم يلبثوا أن اغتالوها... وكان بديلها الحرب الاهلية التي ما نزال نعيش في ظلالها السوداء.

ربما رأى البعض في كتاب «جمهورية فؤاد شهاب»، ولا سيما في أيامنا هذه، نعيا لجمهورية الطائف - الدوحة وما بعدهما... لكن التاريخ سيكتب غير ما يقوله أكلة الجبنة المستمر وجودهم في العهود جميعاً.